

الفصل الأول

الصراع

obeikandi.com

الصراع

حتمية الصراع:

مطلوب أيها الصراع... للدفاع عن الذات وعن المجتمع الذى ننتمى إليه عند الشعور بالخطر، للتصدى لأذى الطبيعة واتقاءً لشرها وعربدتها، للمنافسة فى عالم الاقتصاد والمال ومع من يشارك كوننا نفس مجال العمل، للوقوف ضد رغباتنا وشهواتنا التى قد تدمر ذاتنا وتدمر المجتمع الذى نعيش فيه، للفوز فى المجال الرياضى، وفى مجالات أخرى عديدة تقتضى الحياة منا أن نصارع فيها. عمشيتنا أو مرغمين على ذلك.

تنبع معظم متاعبنا نحن البشر من عدم فهمنا لأنفسنا وللآخرين، إن رد فعل الإنسان لموقف معين من سمع أو رؤية أو وسيلة اتصال يستقبلها الفرد تنتج من تفاعل ما يستقبله الإنسان وكونه فى الوقت الذى يستقبل فيه، ويمكن تعريف كون الفرد بأنه مجموع ما يكون عليه من غرائز وراثية وخبرات مكتسبة وصفات وتكوين جسمانى وعقلى وروحى. أى المجموعة الكاملة المتكاملة للفرد (Complete Set Integrated) التى تنشأ فيها الأنظمة المختلفة (Systems) من نظام عقلى ونظام بدنى ونظام روحى.

من البديهي أن كون الفرد يتغير مع الزمن، فأنا الآن ليس أنا منذ سنوات أو دقائق أو حتى ثوان، وأنا الآن ليس ما سأكون عليه على مدى السنوات أو الشهور القادمة لأننى سأكتسب خبرات ومعلومات جديدة، وعلى مدى أجزاء من الثانية تموت خلايا وتخلق خلايا أخرى فى جسم الإنسان. إن رد فعلى الآن على فعل أو موقف معين بالطبع متغير عن رد فعلى عن نفس الفعل أو نفس الموقف الذى حدث من شهور مضت أو سوف يحدث بعد زمن من الآن، كما

أن رد الفعل يختلف أيضا باختلاف نوع وشدة الفعل، فإذا شكرتني فمن المنطق أن أرد الشكر أما إذا قذفتني بحجر فمن المنطق أن أرميك أنا أيضا بحجر أو أشتبك أو قد أساحك ولكن فى جميع الأحوال لقد تغيرت كيمياء جسمي واكتسبت خبرة جديدة وتغيرت ذاتي وأصبحت مجموعة أخرى (Set Another) من المكونات المادية والعقلية والروحية، وحتى إن لم يتغير النظام الداخلى لى كإنسان فقد تغيرت مدخلات النظام من خبرات جديدة اكتسبتها من فعل الآخرين لى ورد فعلى عليه؛ أى مرورى بموقف معين وخبرة جديدة تم اكتسابها.

لو تفهمنا أنفسنا وتفهمنا الآخرين سنقتضى أخطاء كثيرة من رد فعل متسرع قد يترتب عليه عواقب سيئة فى الحاضر وفى المستقبل، وقد نعانى منها على مدى طويل من الزمن (رحم الله امرأ عرف قدر نفسه).

إن التعاون مطلوب بين البشر طالما لدينا احتياجات يجب أن تستوفى ولا نستطيع بمفردنا القيام بها، فغريزة الاجتماع والغريزة الجنسية وحتى غريزة الصراع، وغيرها من بعض الغرائز الأخرى تتطلب طرف آخر لإشباعها.

إن غريزة الاجتماع تتطلب أطرافاً أخرى متعاونة، وغريزة الصراع والعراك تتطلب طرفاً آخر لصراعه وعراكه، وإلا سيتصارع الإنسان مع نفسه وسيؤدى ذلك إلى تحطيم ذاته وسيصبح كل إنسان هو الغالب وهو المغلوب فى نفس الوقت، وستكون النتيجة النهائية نهاية الفرد وبالتالي نهاية الكل، أما إذا صارع الإنسان طرفاً آخر فسينتهى الصراع إما بنهاية الطرفين أو أكثر احتمالاً سينتهى بإحدى الطرفين غالب والآخر مغلوب، فغالبا سيعيش البعض على حساب البعض الآخر.

فى بعض الأحيان يكون الصراع مطلباً فإذا كان السلوك العدوانى والسادية (Sadism) يسبب الألم والخوف للآخرين، فإن انتشار الخنوع والماسوشية (Masochism) بين أبناء دولة ما يسبب الضعف والاستسلام للدولة ككل فتتهدد ككيان مستقل. إذا كان للصراع أضراراً فإن أقصى الطرف الآخر له أضراراً أيضاً.

إن ضغوط المجتمع على الإنسان كفرد قوية، وكذلك حاجة الإنسان لأن يمارس حق الاختيار أى أن يمارس حريته، ومن خلال هذا الصراع بين المجتمع ككل وبين حرية الفرد تظهر الأمراض النفسية وتظهر المشاكل بين الإنسان والآخرين، مشاكل مختلفة لن تنتهى إلا بانتهاء النظام البشرى.

منذ الولادة يفرض الأبوين على الوليد نوع الطعام والشراب والمكان حتى الاسم المعرف للإنسان مفروض عليه على الأقل حتى يبلغ السن الذى يستطيع فيه أن يغيره. ويكبر الوليد ويصير طفلاً ويبدأ فى الاختيار الذى قد يسبب صدام قبل الصراع، صراع الاختيار وصدام التفكير. أى نوع من الحلوى يختار، أى لعبة يمارسها وأى نوع من الطعام يتناوله، ويكبر الطفل وتبدأ مشاكل المراهقة، فالمرهق يريد تحقيق ذاته غير مدرك ما ينتظره الوالدين منه من أن يكون مهذب مجد فى دروسه، حسن السلوك طيب الأخلاق، ويبدأ صراع من نوع آخر وصدام آخر أو قد يحدث تصدع إذا لم يستطع الأبوين والمجتمع معهما تقويم المراهق. ويكبر المراهق ويصير شاباً يريد أن يعمل ولكن الوظائف محدودة، أو يريد أن يعمل عمل خاص به ولكن المنافسة قوية والإمكانات ضعيفة، ويريد أن يحب ويتزوج ويبدأ صراع آخر مختلف، صراع مع مجتمع بأكمله. قد يتعاطف معه البعض وقد يختلف معه آخرون ولكن بالطبع سيوجد الكثير من التضاد والاختلاف مع الآخرين، ويصير الشاب رجلاً ويبدأ صراع أسرى مع الزوجة ومع الأبناء أو فى العمل مع رؤسائه ومرؤسيه ويصبح الرجل كهلاً ويدخل الإنسان فى صراع آخر مع المرض والوحدة وعقوق الأبناء ثم تنتهى القصة بالوفاة. إن القصة واحدة والنهاية مؤكدة ولا تختلف كثيراً من إنسان لآخر فى تفاصيلها. هذه هى طبيعة النظام البشرى لم تتغير ولن تتغير إلا فى حدود ضيقة لا تخرج من كونها سلسلة من الصراعات والمشاكل التى تتكون وتشكل ثم تحل ثم تبدأ الدورة من جديد.

يجب ألا ننظر إلى النظام البشرى بتشاؤم ولكن يجب أن نتعايش معه ونعيش فيه كما هو فهذا هو قدرنا رغبتنا فيه أو لم نرغب. قد تختلف الضغوط تبعا لاختلاف شخصياتنا وصفاتنا الوراثية والمكتسبة وتبعا للمجتمع والظروف، وقد يختلف الانفعال من شخص لآخر ولكن النظام ثابت بالصراع الدائم.

لقد وجد الصراع ضد الطبيعة فى كل زمان وفى كل مكان، لقد واجه المصرى القديم تحدى قاس للتحكم فى مياه نهر النيل والتحكم فى مجراه حتى لا تظل مياهه تفيض فى مستنقعات لاجدوى منها ولا نفع، بينما باقى الأرض جرداء لا ماء فيها ولا زرع، وكافح المصرى القديم وانتصر أحيانا واستسلم أحيانا أخرى.

إذا كان الإسرائيليون يتندرون بأن أكبر غلطة ارتكبها النبى موسى انه ترك أرض مصر حيث وفرة الطعام والمياه وعبر إلى سيناء ومن هناك اتجه شمالاً إلى أرض الميعاد وليس جنوباً إلى الجزيرة العربية حيث البترول والغاز الطبيعى، فعلى العكس من ذلك فقد كان النبى موسى حكيماً... فبدون المياه والطاقة وجد الصراع ضد ندرة الموارد ومن خلال الصراع ضد التشتت للعودة إلى أرض الميعاد خلق التحدى من أجل النجاح والتفوق، لقد كان قدرهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة مع محاور إحداثيات مكان لم يتنبأ أحد بمقبل خيراته أو مستقبل صراعاته فى ذلك الحين.

إن تجربة اليابان التى تفتقر إلى الموارد الأولية تعتبر مثلاً لهذا التحدى الذى أوصله إلى النجاح والتقدم التكنولوجى والاقتصادى، أما معظم الدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى التى تمتاز بوفرة فى المياه والأرض الصالحة للزراعة والتى من السهل فيها أن تأكل من ثمرات فوق سطح الأرض أو من درنات تحت سطحها؛ فقد كانت سهولة الحصول على الاحتياج الرئيسى للإنسان من أسباب الكسل والتخلف.

بقليل من التجاوز إن وجد، يمكن اعتبار أن كل موقف في الحياة يمثل تحدياً وصراعاً على الإنسان أن يخوض فيه، قد يكون الذهاب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية إجباراً على الفرد من الأسرة أو الأصدقاء، أو قد يذهب الإنسان برغبته، ولكن يجب عليه أن يركز في المشاهدة وأن يتحدى عدم التفكير في مشاكل المنزل ومشاكل العمل، قد يشعر الإنسان بالجوع أثناء المشاهدة ويدخل في صراع مع غريزة أساسية وهي الجوع حتى لا يترك المسرح.

تستعمل اللغة والألفاظ ذات المعاني الانفعالية في إثارة الدوافع العدوانية، إن استخدام بعض الكلمات المثيرة والشتائم والسباب تساعد في اندلاع الصدام وبدأ الصراع كما تزيد من الشحنات الانفعالية العدوانية لدى المتصارعين. نحن نعتبر استخدام هذه الكلمات فصاحة وبلاغة إذا جاءت من جانبنا، كما نعتبرها إثارة وعدوانية إذا جاءت من الطرف الآخر. أن الشحنة الانفعالية من استخدام هذا الأسلوب اللغوي لا تتيح لنا فرصة التحقق من مصداقية الكلام أو حقيقة معناها ومغزاها أو البحث عن حقيقة ما ورائها من أغراض خبيثة أو إثارة حماسة.

من منا لا يتحيز لموضوع ما وإن كان في غير حق؟.. من منا لا يتمسك برأيه وأن بدا غير منطقي؟ نحن نتناقش ونجادل ونختلف في جميع المجالات؛ الأسرة والعمل، وفي السياسة والثقافة، في مشاكل عامة ومشاكل خاصة، مع الأعداء ومع الأصدقاء، نتشبث برأينا في مواضيع ذات قيمة أو في مواضيع تافهة لا تستحق منا ^{المنافسة} مناقشة والمجادلة، ولكنها غريزة إثبات الذات الفردية، غريزة تسير في اتجاه معاكس لغريزة حب الاجتماع وحب الانتماء. هي بداية لصراع على الرأي الذي تكون من تجارب سنين وثقافات موروثة، ناسين أو متناسين أن الآخرين لهم أيضاً آراء أخرى تكونت من تجارب وثقافات مختلفة. كلها أسباب لتصعيد صراع مطلوب لنهاية شئ ما تمهيداً لميلاد شئ آخر، حتى تسير المنظومة كما رتب له مسبقاً ويظل النظام قائماً من ميلاد فذروة فنهاية حكاية لتبدأ حكاية أخرى وصراع آخر.

منذ قديم الزمن تميل الجماعات من شعوب وإمارات وقبائل إلى الاعتقاد بأن تراثها الفكرى وأسلوب حياتها من عادات وتقاليدها هي الأفضل من معتقدات وثقافات الآخرين، لا يدرك معظم الجنس البشرى أن كل ثقافة تكونت لها قيمة ومعنى بالنسبة لمعتقديها، ثقافة نابعة من الزمان بخبراته السابقة ومن المكان بطبيعته المتميزة.

أن مفهوم النسبية الثقافية من وجهة نظر الدراسات الأنثروبولوجية (Anthropology) وهو علم الخصائص الإنسانية والبيولوجية والثقافية للجنس البشرى يمثل حيوية تنوع الشعوب بعاداتها وسلوكها وأساطيرها (Myths) وطقوسها وأفكارها المختلفة حتى يتكامل النظام الكونى من تعارف واختلاف فصراع.

متى وجد التضاد وجد الصراع، فإذا كان التضاد هو أقصى الطرفين فإن الاختلاف والتباين وعدم التجانس درجات أقل من التضاد، نحن نعيش فى عالم مليء بالاختلاف.. فى العقيدة واللغة واللون وشكل البشرة وفى الشخصية من انفعال ودوافع وسلوك، إلى آخره من الاختلافات.

حدث الصراع نتيجة لهذه الاختلافات.. فقد حكى لنا التاريخ عن العديد من الحروب الدينية والصراع بين الأجناس المختلفة والبلاد المختلفة والجماعات المختلفة والأفراد بجميع اختلافاتهم.

تغيرت الصراعات الحديثة عن صراع الزمن الماضى، فبالإضافة إلى الصراع العسكرى الذى تطور من سيوف ونبال وسهام إلى صواريخ وأجهزة حاسبات آلية وبرامج ذكاء اصطناعى (Artificial Intelligence)، كما استحدثت صراعات أخرى جديدة مثل الصراع الأيدولوجى والصراع الاقتصادى والصراع الثقافى. لقد عاصرنا فى العقود الماضية صراع الرأسمالية والشيوعية وصراع آخر خفى بين ثقافات الغرب والشرق، كما عانينا ومازلنا نعانى من الصراعات العرقية والصراعات القومية.

لقد تغير الزمن و تحول العالم الآن إلى قرية صغيرة أو ما يسمى بالعولمة (Globalization) وذلك نتيجة للتقدم الهائل فى التكنولوجيا ونظم الاتصالات والمواصلات وكنيجة للانفتاح الاقتصادى الذى يسود العالم الآن، وكما هرولت الدول سابقا إلى نظامين مختلفين: رأسمالى - شيوعى أو اشتراكى فالجميع يهرول الآن نحو العوالم غافلا عن الصراع الاقتصادى القادم، صراع بين الدول المتقدمة تكنولوجيا ذات الدخل القومى المرتفع للفرد وبين دول العالم الثالث الذى يحبو فى مضمار الاقتصاد الحر.

وبرفع رابطة العوالم تكونت الشركات والمؤسسات العملاقة التى تتشر فروعها فى جميع قارات كوكب الأرض والتى تهيمن على ثلثى التجارة فى العالم، وفى آخر عقد للقرن العشرين اندمجت شركات وابتلعت الشركات العملاقة الشركات الصغرى حتى تحول فى السوق (المعولم) بمفردها. لم تأبه العملاقة إلى ارتفاع معدلات البطالة وإلى الآثار الاجتماعية الناتجة من زيادة نسبة العاطلين عن العمل وأصبح الصراع على العمل حلقة أخرى فى سلسلة الصراعات.

كما صغرت الفروق فى الاتجاهات الأيدلوجية وأصبحت غير مؤثرة فقد خفت حدة صراع المؤسسات والشركات العملاقة، لقد اتفقت هذه الشركات على ألا تتصارع تقريبا فاندمجت بعض الشركات الكبرى والتهمت بعض المؤسسات الصغيرة، وبذلك أصبح الصراع الاقتصادى هو صراع ضباع أى صراع شركات صغيرة نسبيا وقوى أفراد أو جماعات تسلاح بالمال والعزوة والسلاح وجدت لتتصارع على ما تركته المؤسسات الكبرى وتتطلع إلى نهب الإنسان الضعيف؛ أى يمكن تسميته بالصراع على الجيف.

الصراع هو سمة النظام الإنسانى المبني على الصراع الأبدى الذى لاينتهى، و السؤال الذى قد يبرز الآن هو ما شكل الصراع العالمى القادم بعد انتهاء الصراع الاستعمارى التقليدى، لقد سيطرت بريطانيا العظمى فى القرن التاسع عشر كما

سادت الولايات المتحدة فى القرن العشرين، ويبقى التساؤل عن النظام الذى سيفوز فى القرن الحادى والعشرين بعد التكامل الأوروبى الذى تمخض بميلاد عملاق اقتصادى جديد له قوة اقتصادية أكبر من أمريكا واليابان مجتمعين، هل سيكون الصراع بين حضارات وثقافات (من علاقات اجتماعية وعادات وتقاليده وأساطير وعقيدة..) كما نوه الكاتب فوكوياما فى (نهاية التاريخ)، أو كما نوه الكاتب الأمريكى صامويل هنتجتون فى كتابه (صدام الحضارات) بالصراع بين الحضارات المختلفة ومنها الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية أو سيكون صراع بين الحضارة الغربية وحضارة الجنس الأصفر. قد يكون الصراع القادم من أجل نقطة ماء لازمة للشرب أو للرى، سىتهى الصراع على الطاقة البترولية فى نهاية القرن الواحد والعشرين وستتولد صراعات أخرى جديدة، ولكن لن تكون صراعات من أجل حياة رغدة ولكن من أجل التمسك بالحياة.

ترجع البحوث السيكولوجية هذا النوع من الصراع الحضارى إلى طبيعة نشأة الإنسان داخل مجتمع أو جماعة أو حضارة (بصفة عامة مجموعة من الناس متجانسة نسبياً ولها مصالح وأهداف مشتركة)، وتبدأ هذه الجماعة بالنظرة التفاضلية المقارنة بين إيجابياته وسلبيات الجماعة الأخرى فيتولد لديها الإحساس بالتفوق والاستعلاء ثم الاحتكاك الطبيعى بين شيئين مختلفين ثم الاحتكاك العدوانى الذى يتحول عادة إلى صراع، وفى كثير من الأحوال تتكون نواة الميول العدوانية من مجموعة صغيرة تكبر داخل المجتمع أو الحضارة كنتيجة لغريزة التقليد والانتماء إلى المجموعة ويساعد التطور الكبير فى وسائل الإعلام المختلفة فى تضخيم هوة الاختلاف وفى إشعال الشوق إلى الصراع وتكبر نواة الميول العدوانية لتصبح مثل كرة الثلج يزداد حجمها مع مرور الوقت وتصبح فى انتظار شرارة الانفجار لىبدأ الصدام.

تتواجد بجانب الحضارة الغربية التى تعتبر على قائمة الحضارات القائمة فى الوقت الحالى حضارة أخرى واعدة وهى الحضارة الصينية، ويليهما فى الترتيب

الحضارة التى يسميها الغرب بالحضارة الإسلامية أو ما يمكن تسميتها بالحضارة العربية / الشرق أوسطية الإسلامية التى قد تفوق بقوة ودفع العقيدة فى حالة تغير الهيكل السياسى وتقلص النعرة القبلية والنزعة النفعية الفردية أو الأسرية ليسود نظام واحد له هدف واحد. فالدول العربية التى يمكن اعتبارها نواة الحضارة الإسلامية ليس لديها رؤية استراتيجية (Strategic Vision)، وبفرض إن وجدت الرؤية على مستوى أفراد أو جماعات فهى رؤية انفعالية ينقصها التخطيط طويل المدى والتكتيك اللازم لتنفيذ الخطة، كما ينقصها التفكير العلمى المرن الذى يسمح بامتصاص المتغيرات وتعديل الرؤية. مطلوب إنكار الذات الفردية والأسرية والقبلية فى سبيل هدف أسمى وأعظم. يمكن قراءة التاريخ للتذكرة والتعلم من التجربة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل ومن استراتيجية الصين الطويلة المدى وصبرها لضم ما انفرط منها فى الماضى.

إذا كان مركز حضارتنا الإسلامية يكمن فى الشرق الأوسط فإن لهذه الحضارة أذرع كثيرة فى شرق وغرب أفريقيا وفى بلطيق أوروبا وفى كثير من الدول الآسيوية، ولكن للأسباب السابق ذكرها يجئ احتمال صعود حضارة عربية فى الترتيب التالى لصعود الحضارة الصينية التى يدعمها الحكم المركزى المسيطر وتقدمها النسبى فى المجال الاقتصادى والتكنولوجى والعدد الذى يزيد على ألف مليون نسمة بالإضافة إلى انضمام هونج كونج عام ١٩٩٧ ومكاو عام ١٩٩٩ واحتمال انضمام تايوان لها فى المستقبل، كما يدعمها الجاليات الصينية ذات النفوذ المؤثر فى دول جنوب شرق آسيا مثل سنغافورة. ويأتى فى القائمة حضارات أخرى مثل حضارتى أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وهما أقرب إلى الحضارة الغربية وقد تندجما معها إذا واجها عدواً مشتركاً، ويوجد أيضاً الحضارة الهندية والحضارة اليابانية التى تقف بحجمها الصغير نسبياً موقف المسالم الوديع حتى الآن.

تحتاج حضارتنا إلى أنظمة رئيسية (Systems) وأنظمة فرعية (Sub-Systems) سياسية، اجتماعية، اقتصادية، مالية، بيئية، تجارية، صناعية، زراعية.... على أن تصمم هذه الأنظمة وتوضع موضع التنفيذ بطرق ديمقراطية يكون هدفها مصلحة الأكثرية مع مراعاة مصلحة وحرية الأقلية.

لن يستطيع أى نظام أن يراعى جميع المصالح والأهواء ولكن ببعض المرونة من الأطراف المختلفة نستطيع أن نوفق بقدر الإمكان بين جميع الأطراف. بصفة عامة يتكون النظام من مجموعة عناصر (Elements) مرتبطة معا تؤدي مهمة محددة ولها هدف معين، تربط هذه العناصر علاقات موضوعية سلفاً و يهدف أى نظام إلى تحقيق أكبر فائدة لواقعى النظام المستفيدين منه، والذي سيطبق عليهم أو لهم. يجب ان تدير عناصر العمليات المختصة بالنظام فى سلاسة ويسر، وأن يتناغم أداء عناصر النظام ومن الأفضل أن تعالج المشاكل التى قد تحدث فى الأداء الروتينى العادى أو المشاكل العشوائية بطريقة لا تؤثر على النظام وعلى أن يعتبر عمل النظام خلال هذه المشاكل عملية استثنائية يعود بعدها النظام للعمل الروتينى الموضوع سلفاً مرة ثانية فى أسرع وقت ممكن، فى ظروف الحرب أو الكوارث مثلاً قد تتأثر الأنظمة ولكن عندما يعم السلام والاستقرار يجب أن تعود هذه الأنظمة إلى حالتها الطبيعية.

كل شئ فى هذا الكون معرض للتغير والتطوير. قد يجرى التغير من الخارج أو من الداخل، أما التطوير فيجب أن ينبع من الداخل مع الاستفادة بخبرات الآخرين. النظم أيضا يجب أن تتطور ولكن من المتحسن ألا يكون معدل التغير سريعاً، حتى لا يحدث بلبلة وإرباك فى عمليات التطبيق وحتى نعطى لأنفسنا وللآخرين الفرصة للتخطيط على المدى القصير والمتوسط بأقل قدر من المخاطرة واحتمالات التغير فى النظام السائد الذى نخطط فى ظله.

نعود مرة ثانية إلى الصراع واحتمالات حدوثه، على مدى النصف الأول من القرن العشرين كان النمو السكانى يتناسب تقريباً مع الزيادة فى الموارد المتاحة

على كوكب الأرض ولكن دعنا نرى ماذا حدث فى النصف الثانى من هذا القرن من تناقص نسبى (بالنسبة للسكان) فى إنتاج الغذاء من فوق اليابسة أو من البحار والأنهار، كما أصبحت المياه العذبة مشكلة فى أماكن كثيرة من هذا العالم وأعتقد مازلنا نتذكر سنوات الجفاف التى حدثت فى أفريقيا وتصحر أراضي ليست بقليلة فى هذه القارة. إن الأرض محدودة والمياه العذبة محدودة أيضا وبالطبع سوف يؤدى هذا إلى زيادة الصراع وضراوته، لن يصبح الصراع من أجل الرفاهية ولكن سيكون صراعاً من أجل الحياة ومن أجل أطفال يموتون جوعاً أو عطشاً. إن الصراع القادم سيكون مأساوياً - إن لم يكتشف الإنسان طرق جديدة غير تقليدية لإنتاج الغذاء والحصول على المياه اللازمة للشرب أو للرى أكانت هذه الطرق فوق كوكب الأرض أو فى أماكن أخرى فى كوننا المترامى.

من الممكن إضافة سيناريو آخر محتمل حدوثه فى القرن الواحد والعشرين مع السيناريوهات التى جاء ذكرها فى كتاب (صدام الحضارات): كرد فعل للانفتاح والانتشار (العولمى) الذى يسود العالم فى نهاية الألفية الثانية للميلاد ونتيجة لانخفاض فرص العمل وقلة الموارد الطبيعية من مياه وأرض صالحة للزراعة، من المحتمل أن يحدث انكماش مكانى للحضارات وتوقع للأصول العرقية، إن أوروبا تطرد الأجانب ذوى الأصول الأفريقية والآسيوية وبسيطرة سود جنوب أفريقيا على الحكم قد يعود ذوى الأصول البيضاء إلى أوروبا، أما أمريكا الشمالية ومع زيادة نسبة ذوى الأصول الأفريقية والأسبانية فقد تنقسم إلى ثلاث دول: بيضاء ذوى أصول أوروبية وسوداء ذوى أصول أفريقية وسمراء ذوى أصول أسبانية أما الجاليات الآسيوية، وبالأخص الجالية الصينية والجالية الهندية فقد يشدا الرحال إلى منشئهم فى الصين أو الهند وبالأخص بعد الانفتاح الصينى وتغيرها الأيدولوجى فى المستقبل. يتبقى العرب والشرق الأوسط التى لن تصبح مطعماً بعد انتهاء البترول والغاز الطبيعى ولن يساند الغرب أى قوى داخلية فيتجدد الصراع الداخلى وتتناثر هذه الحضارة فى جزر من النعرات العرقية والقبلية والطائفية، إنها دورة أخرى من الدورات التى يتميز بها نظامنا الكونى

والخوف كل الخوف من العودة إلى حرب السهام والنبال وأحياء سوق عكاظ
ليجتمع مرة كل عام على التوالى فى كل دويلة من الدويلات التى ستكون
مستقبلاً.

وأخيراً لابد أن نجد للصراع الذى نخوضه هدف ومعنى، ان الصراع بدون
أمل فى تحقيق الهدف يدفعنا إلى الإيمان بعبث الصراع، العبث Absurd الذى عبر
عنه الكاتب الفرنسى ألبر كامى بالتضارب ما بين العقل الإنسانى المنطقى
وانعدام المنطق فى تركيب الكون، هذا التضارب هو الذى يؤدى إلى تعب العقل
البشرى فى التفكير فيه، فالوظيفة الرئيسية للعقل البشرى هى التميز ما بين
الحقيقة والزيف وبين اليقين والشك، ولما كانت الحقيقة، واليقين / الشك يخضعان
لنظرية الاحتمالات فالعبث وارد فى هذا الصراع.

* * *

الصراع الداخلى

آه من هذه الحياة، لقد خلقنا فى كبد وكد وكفاح، صراع دائم مع النفس ومع الغير ومع الطبيعة. متى بدأ الصراع وهل سينتهى، مشاعر كثيرة مرت بنا وأسئلة أخرى كثيرة تراود الإنسان منذ الخليقة. بدأ الصراع منذ بدء الخليقة ولن ينتهى إلا بانتهاء النظام الحى؛ مادمننا لا نستطيع إشباع جميع غرائزنا واحتياجاتنا المختلفة. إذا استطاع الإنسان الحصول على أى رغبة بيولوجية أو سيكولوجية بمجرد الإحساس بها أو التفكير فيها؛ فلن يحدث الإحباط، ولن يوجد صراع. ولكن طبيعة هذا النظام الكونى الملىء بالتضادات والمعوقات تمنع الفرد من تحقيق الكثير من مطالبة وتحد من سعيه للوصول إلى أهدافه فيشعر بالإحباط واليأس الذى قد يؤدى إلى السلبية أو إلى أمراض نفسية وعضوية.

تتنوع المعوقات التى تعوق الإنسان فى إشباع رغباته، منها معوقات مادية فى الطبيعة مثل قسوة المناخ والعواصف والزلازل وقيظ الصحراء وهيجان البحار والمحيطات، فنحن نخطط لقضاء أجازة جميلة فى منتجع هادئ جميل ولكن لا نستطيع أن نتنبأ بدرجة دقة عالية ما الذى تخبأه لنا الطبيعة بعد شهر أو حتى بعد أسبوع، نرتب لسفر يوم معين وتلغى الرحلة لسوء الأحوال الجوية، تتهدم مساكن ومنشآت لوقوع زلزال غير متوقع حدوثه. هكذا تقف لنا الطبيعة حائلاً للاستمتاع بها فى كثير من الأوقات.

وتوجد أيضاً المعوقات الجسدية مثل العمى والصمم والبكم... والأمراض الجسدية الأخرى التى قد تمنع تحقيق هدفنا أو إظهار مواهبنا. لقد تقدم الطب كثيراً فى السنوات الماضية، ولكن مازال الصراع قائماً بين الإنسان والمرض فلن نستطيع القضاء على جميع الميكروبات والفيروسات بل بالعكس فأنها تطور نفسها لتقاوم الأدوية وتظهر أنواع جديدة يستلزم لها سنوات عديدة للقضاء

عليها أو الحد من انتشارها إذا استطعنا ذلك. ويوجد كذلك الصراع بين الفرد والآخرين ^{فالحاجات} كثيرة والمصادر المتاحة قليلة، ^{يستطيع} البعض منا الحصول عليها بعد كفاح وصراع وتظل الأكثرية صابرة صبر الجبان الخائف، حاقدة حاسدة أو متحفزة للفرصة التي قد تحين للحصول ^{على الاحتياجات} عن طريق السرقة أو القتل ولولا الخوف من العقاب الإلهي وعقاب المجتمع لزداد الصراع الدموي القاتل.

أما الصراع الداخلي فهو ينتج من حدوث اجتماع لشعورين متنافرين فى نفس الوقت فمثلا ينتابنا شعور بالنفور عن رؤية إنسان لا نحبه فنبعد عن طريقه حتى لا نراه أو نحتك به أما إذا اجتمع مع الشعور بالنفور شعور بالواجب الذى يحتم علينا مقابلة الإنسان الذى ننفر منه فأن الصراع الداخلى يبدأ فى التكوين وتبدأ كيمياء الجسم فى التغير ويبدأ الضغط العصبى / النفسى فى الحدوث.

يعتبر أخطر أنواع الصراع هو الصراع الداخلى بين العناصر المختلفة المكونة لشخصية الفرد، هذا الصراع الذى قد يأخذ شكل صراع نفسى بين الأنا (Ego) وبين الغرائز الأساسية أو يأخذ شكل الصراع الذهنى لحل مشكلة ما أو الاختيار ^{كثير} بين مرادفات كثيرة، قد تسبب فى أبسط حالاتها الصراع، أو قد تسبب من الأمراض العضوية والنفسية. ومن خلال الصراع الداخلى قد يحدث الصراع اللاشعورى عندما تقف الظروف أو المجتمع حائلاً لعدم إشباع الحاجة خصوصاً الغرائز والحاجات الأساسية فيكون نتيجة ذلك كبت رغبة إشباع هذه الحاجات فى حيز اللاشعورى. قد يظن الفرد أن الصراع قد انتهى ولكنه يظل متحفز فى انتظار أى مخرج ليثور الصراع النفسى داخل الإنسان، الصراع الذى يسبب أمراض قد لا نعلم سببها إلا بالعلاج النفسى.

يعتبر الصراع النفسى الداخلى أخطر أنواع الصراع فدعنا نلقى نظرة على هذا الجهاز النفسى الذى يقسمه بعض علماء علم النفس إلى ثلاثة عناصر وهى:

الهو (Id):

وهو العنصر اللاشعورى فى الشخصية والذى يحتوى على الغرائز والرغبات الطبيعية البدائية التى قد يكتبها الإنسان بطريقة لاشعورية لأنها لا تتماشى مع نظام المجتمع أو مع القيم والأخلاق والتعاليم الدينية التى اكتسبها من الصغر عن طريق المجتمع.

تخيل يا عزيزى أنك وحدك فى جزيرة تعيش بالفطرة لن تنظر حولك عندما تريد أن تبصق أو تتبرز أو تتبول لتكون بعيد عن نظر الآخرين، تستطيع أن تسير أو تسبح عارياً، لك الحرية أن تخرب فى البيئة المحيطة أو تنال ما ليس ملك لك، قد تبحث عن فريسة من أى نوع لإشباع غريزة القتال أو غريزة الجنس، والآن لنترك أحلام اليقظة ولنعود إلى مجتمعا الذى لا يسمح أن نكون على فطرتنا الأولية فنكبت هذه الرغبات التى تبقى حية تعمل فى مكنها الغائر فى النفس البشرية فى انتظار الفرصة الملائمة لتخرج إلى النور أى إلى العالم الخارجى ولكن بقوة ضغط كبيرة أو قد تتشكل بتكوينات جديدة تسمى بالعقد النفسية التى هى عبارة عن رغبات لم يتم إشباعها أو ذكريات أليمة تم كبتها فى اللاشعور.

الأنا (Ego):

وهو الجانب الشعورى فى الشخصية الإنسانية والذى يتعامل مع العالم الخارجى ويتفاعل معه، ولكن يتصارع مع الغرائز والرغبات الفطرية (الهو) التى لا تتماشى مع تقاليد المجتمع أو التعاليم الدينية، وعن طريق الأسرة فى حياة الطفل الأولى وعن طريق المدرسة و دور التعليم الأخرى فى المرحلة التالية ثم عن طريق الاحتكاك بالمجتمع واكتساب خبرات جديدة تتكون الأنا التى تميز كل فرد عن الآخر بشخصيته المنفردة.

يظل الصراع قائماً فى الأعماق اللاشعورية للنفس البشرية بين الأنا من جهة وبين الرغبات الفطرية الأولية من جهة أخرى، هذا الصراع الذى قد يؤدى إلى دمار الفرد نفسياً وذهنياً وعضوياً إذا ازداد ضغط المجتمع على الإنسان عن طريق

الأنا الخاصة به خصوصاً إذا كان هذا الإنسان ضعيفاً من حيث الطاقة النفسية أى إذا استمر الضغط طويلاً؛ بحيث تفرغ شحنات بطارية الطاقة النفسية ولا يجد الفرد أى طاقة متاحة لمقاومة الضغوط الخارجية فيحدث الانهيار النفسى الداخلى.

إن بطارية الطاقة النفسية مثل نظام المناعة داخل جسم الإنسان الذى يقينا من الأمراض فيجب علينا دائماً شحن هذه البطارية عن طريق الترويح عن النفس والبعد عن المشاكل التى إذا زادت عن حد معين قد تدمر الإنسان داخلياً، كما يجب أن نشغل تفكيرنا ومجهودنا فى الرياضة أو القراءة أو عن طريق العلاج النفسى إذا وصلت الحالة إلى الحد الحرج.

الأنا العليا (Ego Super):

هذا الجزء من الشخصية الذى يتكون لاشعوريا ويعتبر كقريب داخلى وحائلاً ضد اندفاع الغرائز المدمرة و الرغبات البدائية المكبوتة فى اللاشعور، ويسمى علماء النفس الأنا العليا بالضمير الذى يتكون على مر سنوات العمر من خلال تجاربه وقراءاته وعقائده المكتسبة من المجتمع.

إن الصراع الداخلى لا ينتهى فالأنا العليا أيضاً تتصارع مع الأنا إذا لاحظت تصرفاً للإنسان يتنافى مع القيم أو أخلاق المجتمع وقد يؤدى ذلك إلى عقاب الإنسان لنفسه فكثير منا له ضمير نشط يكفر دائماً عن خطئه فإذا أخطأ الفرد ذو الضمير النشط فإنه يكفر عن خطئه بالصلاة أو الصوم أو الدعاء بالتوبة أو قد يحرم نفسه من بعض المتع تكفيراً عن معصية قد ارتكبها. إن خطيئة الفعل واعتبارها معصية هى عملية نسبية تختلف باختلاف الفرد والمجتمع والزمان.

إن إنهاء الصراع أو الخروج منه لا يتم إلا على طريق الإشباع للحاجة التى هى سبب الصراع والتغلب على العقبات التى تقابلنا، وإذا لم يستطع الفرد إنهاء الصراع بطريقة صحية نفسياً فإنه يلجأ كرد فعل للإحباط إلى العدوان أو إلى الخيال وأحلام اليقظة أو الانسحاب السلبي.. قد يكون الفرق بين إنهاء الصراع

بطريقة صحية أو بطريقة غير صحية شعرة رقيقة من المرونة أو قالب من الصلف والكبرياء والحساسية نضع أنفسنا فيه، نخطأ ومن منا بلا خطيئة ولكن بمنعنا كبريائنا ألا نعتذر وتبدأ سلسلة من الصراعات قد لا تنتهى إلا بمعرض أو وفاة أو فقد ماديات كثيرة، فلندع الصراع للحالات التى نتأكد فيها أننا على حق وأننا نملك القوة أو بعض القوة لمواجهة الصراع، فالصراع الداخلى يفقد أشد الناس ذكاءً حكمته وذكائه خلال فترة الصراع فيتصرف كالحمقى ويتحول إلى إنسان فطرى. إن الصراع يستلزم دراسة إمكانياتك وظروفك وكذلك قدرات من تواجهه، وفى الصراع يجب الأخذ فى الاعتبار الاحتمالات القدرية المتوقعة فنحن نكر والغريم يكر ولكن القدر قد يكر أيضاً لنا أو علينا.

قد نتصر وقد نفتل ولكن دائماً للإنسان سبل كثيرة دفاعية لمواجهة الفتل فى الصراع والإحباط الناتج من هذا الفتل، مثل تبرير الدخول فى الصراع وإلقاء اللوم على الغير والكذب والإسقاط بنسب الصفات السيئة بعد تضخيمها إلى الغير. يعيش معظم الناس متوهمين أنهم الأحسن والأرجح عقلاً من باقى قطيع البشر فالصواب دائماً منهم والخطأ دائماً من الغير.

إن الصراع أهم سمة فى نظام الكائن الحى ويتحقق النصر للفرد الأكثر استعداداً للنضال، وكلما تفهمنا دوافع الصراع وحصلنا على المعلومات الكافية عمن نصارعه واكتسبنا خبرات متنوعة وعميقة فى مجال الحياة ونمينا الجسد والعقل وتحلينا بالمرونة والصبر؛ لاستطعنا أن نقاوم ونناضل على علم وفى الحق.

* * *

الدوافع والسلوك

يتمثل الدافع فى إشباع حاجة أو تحقيق هدف أو التصرف تبعاً لعادة مكتبة، وفى المعنى الأعم للدافع يعتبر المثير دافعاً أيضاً. تنبع عملية إشباع الحاجة أو تحقيق هدف ما من استثارة داخلية للإنسان، فمثلاً فى حالة الجوع عند استهلاك الطعام وتحوله إلى طاقة تتبادل الإشارات بين المخ والنظم الداخلية لجسم الإنسان ليظهر الإحساس بالجوع، كما تتم الإثارة الجنسية عن طريق الرؤية أو السمع أو حتى التخيل، وفى حالة الصراع يبدأ الإنسان فى التحفز استعداداً للعراك والقتال، وكل هذه عمليات داخلية ينظمها مخ الإنسان.

وتعتبر عملية إشباع الحاجات الأساسية وإشباع الغرائز من أهم الدوافع لدى الإنسان، كذلك ينبع دافع تحقيق الهدف من الغرائز، فإن هدف الوصول إلى مركز اجتماعى أو سياسى مرموق ينشأ بطريقة شعورية أو لاشعورية من إشباع بعض الغرائز المركبة معاً مثل غرائز السيطرة والتملك وحب الاجتماع والصراع.

أن إشباع العواطف مثل عاطفة الحب التى لا يعتبرها بعض علماء النفس غريزة أولية ولكن عاطفة مركبة تستثار أيضاً عن طريق تفاعل أكثر من غريزة معاً ومنها الغريزة الجنسية وغريزة الخنوع عند بعض الناس وغريزة التملك عند آخرين.

ووجود الدافع أو المثير هو الذى يملئ علينا أنماطاً معينة من السلوك والانفعالات المختلفة من صراع أو سكينه أو الشعور بالحزن والألم أو الشعور بالسعادة والهناء. يمكن تقسيم الدوافع إلى دوافع أولية أو ما يسمى بالدوافع العضوية وإلى دوافع ثانوية وهى دوافع نفسية اجتماعية أو دوافع ذاتية تختلف من شخص لآخر، وتنبع الدوافع الأولية من الفطرة حيث أنها دوافع لم يكتسبها

الإنسان عن طريق الخبرة أو التعليم. ومن هذه الدوافع الحاجة إلى الهواء والطعام والشراب والجنس والمأوى. ويختلف السلوك لإشباع هذه الدوافع إلى عوامل كثيرة منها وراثية فى جينات الإنسان ومنها مكتسبة من البيئة فى المنزل ودور التعليم والعقيدة والثقافة (Culture) بصفة عامة كما يختلف السلوك تبعاً لشدة الحاجة - أى قوة الدافع - فالإحساس بالجوع أو العطش قد يؤدى إلى الطلب أو الاستجداء، أما إذا اشتد هذا الإحساس فقد يؤدى ذلك إلى أذى الغير إذا لزم الأمر للحصول على الطعام أو الشراب. لقد سجل د. جمال حمدان فى موسوعته (شخصية مصر) عن عمليات اضطهاد البشر وقتلهم لسد الإحساس الشديد بالجوع أوقات المجاعات التى عانى منها الشعب المصرى من مئات السنين.

إذا كانت الدوافع الأولية مشتركة بين جميع الناس فإن الدوافع الثانوية هى دوافع شخصية تختص بالفرد ذاته وتعتبر الأساس فى اختلاف إنسان عن الآخر من حيث الميول والأخلاق والشخصية، وتنبع هذه الدوافع من البيئة والوراثة معا فإذا كانت الدورات الطبيعية (المزاجية والذهنية والنشاطية) والتى لها تأثير على سلوك الإنسان بصفة عامة تعتمد قوتها وتوقيتها على جيناته وميعاد ميلاده؛ فإن الخبرات المكتسبة أيضاً قد تحد من قوتها أو إلى زيادة حدتها فقد تكون الألعاب الرياضية العنيفة مثل الملاكمة والمصارعة هى البديل لغريزة العراك والصراع، كم تنظم الأديان والقوانين الموضوعات العلاقات الجنسية فقد كان المصرى القديم يتزوج من أخته أو أمه أو ابنته وكانت تنتشر فى بعض القبائل الأفريقية والأسبوية عادة تعدد الأزواج وكانت ليلة الزواج الأولى من نصيب أمير الولاية أو العمدة فى بعض البلاد الأوروبية. إن هذه الدوافع (الصراع - الجنس..) تعتبر دوافع مركبة أو دوافع معقدة تتأثر بالبيئة المحيطة وتتغير بمرور الزمن.

إن الشعوب النهرية مثل شعب مصر الذى عاش على مر القرون الماضية على ضفاف النيل أو فى دلتاه يحصل على الماء اللازم للشرب أو للرى بسهولة من النهر أصبح شعباً يحكم العادة لا يميل إلى العدوان أو الصراع وتعلم هذا الشعب

الصبر من الزراعة فهو يذر الحب ويرويه وينتظر وقتاً طويلاً حتى يحصد ثمار كده، لذا لم يترك هذا الشعب جوار نيله حتى عندما شعر بضنك العيش ومحدودية موارده. كما أثرت بيئة المكان على شخصية هذا الشعب فأصبح مسالماً يمكن السيطرة عليه، أما الإنسان الذى يعيش فى بيئة بدوية صحراوية حارة تتناثر أفرادها أو جماعته والذى يبدأ نشاطه فى الصباح الباكر أو عند غروب الشمس لاتقاء وهج الشمس وحرارة الطقس لا يستطيع حتى أيامنا هذه الحياة فى مدينة عامرة بالسكان أو فى مباني مشتركة مع عائلات أخرى؛ فقد تعود على نمط العائلة المنعزلة عن الآخرين. هذا من ضمن الأسباب التى أدت بالشخصية الشرق أوسطية على مر القرون إلى التفوق فى نظم الشعر والعاطفة الجياشة، إن منظر غروب الشمس أو شروقها والفضاء الواسع المفتوح أمامه أو منظر فتاة يندر أن يراها إلا على أوقات متباعدة تثير فيه عواطف كثيرة تختلف عن عواطف إنسان يعيش فى بيئة تعطيها الثلوج أكثر أوقات السنة كامناً فى منزله ذى الأبعاد المحدودة من الأفضل له أن يعيش وسط جماعات ليشعر بالدء ويتغلب من خلال الجماعة على الوحدة والإحساس بالضيق والملل. وبالطبع فإن الإنسان الذى يعيش فى الغابات والأحراش ذى المناخ المطر الرطب والذى يتعرض دائماً إلى هجوم حيوان مفترس جائع سيكون عنيف السلوك، عدوانى، سريع الحركة، يتوقع الخطر والعدوانية ممن حوله، دائم الصراع كثير العراك.

إن كثيراً من السلوك ينبع من دوافع غريزية فى الأصل فمثلاً سياسة القطيع أو التقليد نابعة من غريزة حب الاجتماع أو غريزة الخنوع فيشعر الفرد انه بتقليد فرد أو مجموعة يتقرب منهم ويصبح فرد منتمى إلى هذا المجتمع وجزء من هذا النسيج الذى يتقرب منه أو يحس بلذة مازوكية من سيطرة فرد آخر عليه والسير فى ركاب الفرد المسيطر. إن الإعلانات التجارية عبر الراديو والتلفزيون وهرولة أفراد المجتمع فى اتجاه معين وراء فنان أو فنانة مشهورة أو وراء رجل أعمال أو سياسى ناجح هى مثال جيد لسياسة القطيع أساس علوم كثيرة منها التسويق والاقتصاد وإدارة الأعمال، وهى أيضاً أساس ظهور الزعماء والمبشرين من ناحية

وظهور الدجالين والنصايين من جهة أخرى، فقد سار كثير منا وراء شرك
النصب والاحتيال لجرد أن صديق أو قريب أو زميل فى العمل سار فى هذا
الطريق وبدون أن نتحرى أو نفكر فى صعاب الطريق أو نتائجه أو إذا كان هذا
الطريق يؤدى إلى منفعة أو يؤدى إلى هلاك.

* * *

الانفعال

يؤدى أى تغير يطرأ على الإنسان إلى الانفعال حتى إذا كان التغير إلى الأحسن وليس إلى الأسوأ، ويحدث التغير كنتيجة لإثارة داخلية أو خارجية. أن الشعور بالألم فى جزء من أجزاء الجسم أو تذكر ذكريات أليمة أو حتى الذكريات السعيدة يؤدى إلى الانفعالات الداخلية. أما الاستثارة الخارجية فتنبع من حادث ما تؤثر على الجسد أو من رؤية منظر ما أو حوار أو موقف معين. ويشمل الانفعال جميع أجزاء الجسد فالاستثارة تحدث تغيراً فى كيمياء الجسم الذى يعتبر كيان واحد متكامل، فجاناب الانفعال الخارجى الظاهر على الوجه أو الأيدى أو الأرجل يوجد انفعالات داخلية كثيرة للأنظمة والأجهزة المختلفة داخل الجسم؛ فالجهاز الهضمى والجهاز التنفسى والدورة الدموية وباقي الأنظمة الأخرى تتأثر بطريقة ما بأى انفعال يحدث للفرد كسرعة ضربات القلب وانقباض وارتخاء عضلات الجسم وجفاف الفم والحلق والاضطراب فى التنفس وتغير حرارة الجسم والشعور بالعرق وبالطبع التغير فى كيمياء الدم.

تؤدى التقاليد والعادات إلى تغير انفعالات الإنسان، فلم يصاحب تقديم الإسكيمو القديم زوجته إلى الضيوف أى انفعال بالغيرة، كما كانت عملية الاستتباع تمارس فى العصر الجاهلى بدون أى مساس بالكرامة، فكان من عادة العربى الجاهلى أن يرسل زوجته إلى رجل آخر له صفة مميزة مثل القوة أو الذكاء أو الكرم لتستضع منه أى تنجب منه على أن ينسب المولود إلى الزوج.

من الممكن أن يتوالد داخل الإنسان انفعال مركب كنتيجة لازدواجية الشعور (Ambivalence of Feeling) أى تناقض الشعور وتذبذبه من حب وكراهية / شجاعة و خوف / ضحك وبكاء/.. لقد تعود الشعب المصرى أن

يتوقف عند الضحك الزائد ويردد (اللهم أجعله خيراً)، نحن نمتكثر على أنفسنا السرور والضحك ونريد أن نعود إلى حالة البؤس والشقاء.

يعبر الإنسان عن الانفعال بطرق مختلفة تبعاً لنوع الانفعال وشدته، فانهفعال الفرح يختلف عن انفعال الحزن أو الكراهية أو الحقد أو الرعب أو الدهشة، وبصفة عامة يوجد ارتباط بين الانفعال وسلوك الإنسان، فالإنسان الذى يتصارع لا يبدو عليه انفعال السعادة ولكن تظهر عليه انفعالات الغضب والتحفز. وعندما يكون الدافع قويا فالانفعال بالتبعية لابد أن يكون قويا فمثلاً عندما يشتد دافع الظمأ أو الجوع ينتج عنه حالات انفعالية متمثلة فى الغضب والقلق والثورة عند تأخر الشراب أو الطعام.

قد يكون الانفعال بسيطاً مما لا يستلزم التغير فى سلوك الإنسان، أو قد يستطيع المرء التحكم فيه لعدم شدة التغير أو للظروف التى أحدثت فيه التغير و التى تجبر الفرد على التحكم فى انفعاله مثل وجود شخص مهم أو الخوف من فقدان مال أو وظيفة. وتختلف قدرة التحكم فى الانفعال من فرد لآخر وفقاً لشدة مكون الغرائز المختلفة فيه وما اكتسبه من المجتمع، ففي الغرب مثلاً لا يهتم كبت الانفعال الجنسي مقارنة بالشرق، كما أن انفعال الغضب تقل حدته فى البلاد الباردة عنه فى البلاد الحارة. وكما يتحكم فىنا المكان فالزمان أيضاً يتحكم فىنا فانهفعال الإنسان الأول فى الغابة يختلف عن انفعال الإنسان الحديث المتحضر ومن يدري ما سيكون عليه الانفعال الشرقى فى المستقبل إذا سيطر المجتمع الغربى البارد على عملية الاستنساخ.

عاشت المرأة بالانفعال كأعظم ممثلة على مسرح الحياة، فهى تعرف جيداً متى تذرف الدموع ومتى تجمدها فى مقلتيها، تستطيع أن تظهر أى انفعال وأكثر من انفعال واحد على وجهها البهىء. فالمرأة لها القدرة عند الصيد أن تحفى انفعال الحقد والانتقام داخل ابتسامة عذبة رقيقة، وأن تظهر عند الشماتة انفعال الحزن والأسى بالرغم من أن ما بداخلها غل وفرح وسرور. كم سقط من

الرجال فى شرك انفعال المرأة، ولم يتعلم الرجل على مدى العصور المختلفة، فالذكر البشرى أو الحيوانى هو الكائن الذى لم يتعلم من تجاربه مع الأنثى بالرغم من التاريخ المسموع أو المكتوب عند الإنسان، فسقط الذكر ومازال يسقط فى مستقع غسل الأنثى جاهلاً أو متجاهلاً أنه يتحلل ويذوب وأنه ينتهى إما كأذوبة ذكر أو مسخرة لأنثى.

لا يستطيع الإنسان أن يمنع انفعاله كما لا يستطيع أن يتحكم فيه طوال الوقت، ولكن يجب أن نضع أمام أعيننا لافتة تنبيهية حمراء عن أضرار الانفعال الحاد فنحن نحمي مرة واحدة، نأمل أن تكون سعيدة:

- الانفعال يجعل التفكير بطيئاً ويحوله إلى عملية صعبة على الإنسان.

- يؤثر على التركيز والذاكرة والإدراك.

- يساعد الانفعال الحاد على تفكك المعلومات المكتسبة حديثاً فتغلب المعلومات الغريزية الأولية على التفكير والسلوك، وقد يؤدي ذلك إلى السلوك العدواني.

- وأخيراً يؤدي الانفعال إلى تغيرات عضوية فى الأنسجة وإلى قرحة المعدة، قرحة الأمعاء، ارتفاع ضغط الدم، الربو الشعبى، فقدان الشهية أو الشره، أمراض الحساسية بالإضافة إلى الأمراض الخاصة بالجهاز البولى والتناسلى والقلب.

* * *

العاطفة

تعبر العاطفة عن ميول داخلية لموضوع معين، ويكون قد تم اكتساب هذا الميول عن طريق التجارب والخبرات التي مر بها الإنسان خلال رحلة حياته. وتتكون العاطفة من مجموعة من الانفعالات قد يكون بعضها غريزياً والبعض الآخر مكتسباً. وكلما تعقدت العاطفة زادت الانفعالات المصاحبة لها، فعاطفة الأمومة تصاحبها انفعالات الخوف والحنان وحب التملك.

إن المرأة البدنية نوعاً ما، البيضاء البشرة كانت مفضلة في قديم الزمن ومع تفاعل غريزة الجنس وما اكتسبه الفرد من المجتمع عن جمال المرأة البدنية البيضاء البشرة قد تنشأ عاطفة الحب عندما يرى أحد من أجدادنا مثل هذه الفتاة تسير في الطريق، أما الآن فقد فرض المجتمع على مقاييس الجمال الرشاقة والقوام الممشوق وأصبحت المرأة البدنية تثير الشفقة بدلاً من الإعجاب وإثارة عاطفة الحب. قد نجعل سبب حبنا أو كرهنا إلى أصناف معينة من الطعام ولكن بالرجوع بذاكرتنا إلى الوراء والبحث عن مواقف معينة سعيدة أو غير سعيدة مرتبطة بهذه الأصناف قد نتذكر السبب.

إذا كان الانفعال حدث عابر ينتهي بعد قليل من الزمن فإن العاطفة التي اكتسبت وتكونت من خلال تجارب كثيرة متكررة على مدى من الزمن تظل لاصقة للفرد طويلاً، قد تستمر العمر كله أو قد تتغير بتغير الظروف واكتساب الفرد خبرات جديدة مختلفة بانتقال الفرد مثلاً من مجتمع إلى مجتمع آخر مختلف. وتلعب العواطف دوراً هاماً في حياتنا، فقد تكون هي الدافع لتحقيق الهدف وقد تغير من اتجاه الفرد، فمن منا لم يتأثر بصديقه أو بمن يحب وسمع نصائحه وألغى في بعض أو كل الأوقات استخدام العقل والمنطق، ليس المهم إلى الأفضل أو إلى الأسوأ ولكن قد نغير اتجاه حياتنا وسلوكنا بمجرد إرضاء من نحب.

قد تجدد العاطفة نشاطنا وتوصلنا إلى الأحسن وقد تدمرنا إذا سرنا وراءها مغمضى الأعين، صم لا نسمع إلا نداء العواطف، بكم لا نتكلم إلا بلسان الحبيب. بالطبع يوجد عواطف نبيلة مثل عاطفة الأمومة، ولكن يجب أن نتنبه فقد تنقلب هذه العاطفة إلى حب للتملك والسيطرة. ومن العواطف الاجتماعية النبيلة، أيضا عاطفة التدين وعاطفة حب الوطن وحب المجتمع الذى نعيش فيه، فقد نبذل أرواحنا فى سبيل الدين أو فى سبيل الوطن، نقاتل للدفاع عنه، غير عابئين بالنتائج أو الخسائر.

بالإضافة إلى العواطف السابق سردها يوجد أيضا نوع آخر من العواطف المجردة كالميل إلى المثل العليا والأخلاق والصدق والأمانة، أو الميل إلى الطرف النقيض من هذه العواطف من كذب وحقد وقسوة والسطو على ممتلكات الغير. إن للأسرة ودور التعليم بل والمجتمع ككل الدور الأساسى فى توجيه هذه العواطف إما إلى الأفضل أو إلى الأسوأ، ولكن على أية حال فالأفضل والأسوأ عملية نسبية تتغير تبعا للزمان والمكان، فأصبحت التضحية من أجل صديق كما كان يحدث منذ زمن طويل مضى نوع من أنواع السذاجة فى وقتنا الحالى، وكذلك حب واحترام الوالدين الذى ساد حتى منتصف القرن العشرين أصبح الآن أو كاد يصبح من مخلفات التاريخ. ومع الاتجاه إلى الانفتاح الاقتصادى والثقافى والعولمة بمعناها الشامل أصبح الانتماء نوع من التخلف.

تختلف شدة العواطف من شخص لآخر فقد تسيطر عاطفة ما على الفرد وتصبح هذه العاطفة هى السمة المميزة لهذا الفرد؛ فيوجد إنسان يسيطر عليه حب جمع المال بشراهة أو الحنان الزائد أو الأنانية أو عشقه للسفر والترحال، وليس معنى هذا أن الفرد لا يملك باقى العواطف ولكن قد تظهر عاطفة أو أكثر بصورة واضحة وقوية فى الشخصية، أما باقى العواطف فتظهر بصورة أقل قوة أو بصورة باهتة.

ونعود مرة ثانية إلى قوة الزمن وتأثيره على العاطفة، فالتجارب المكتسبة قد تغير من شدة العاطفة. إذا كنت رجلاً في الخمسين من عمرك فارجع إلى الوراء ربع قرن وتذكر ماذا كنت وأنت في الخامسة والعشرين من العمر، بالطبع كنت رجلاً أقل شراهة لجمع المال، كنت متعطشاً للحب، يملأ قلبك الرومانسية والشفافية، تحلم بالزواج من فتاة أحلامك وتحلم بالأسرة السعيدة وبالحلف الصالح، لقد كنت مزهوا بنفسك وبشبابك وتخطط لما ستفعله في المستقبل على ثقة بقدراتك، قد يملوك الغرور والكبر والعناد فهذه هي عواطف الشباب. لا تقرح وانتظر قليلاً فما أنت قد تزوجت بمن تحبها وأنجبت أطفالاً وبدأت المرأة بعد سنوات من الزواج في التكشير عن أنيابها، لقد تغيرت وتطلعت إلى الأعلى تريد رفاهية العيش والسكن فصدقتها تزوجت من غنى يوفر لها سبل الراحة والرفاهية وصدقتها الأخرى تسافر إلى الخارج سنوياً للسياحة أو يهديها زوجها النفيس من المجوهرات، ثم كبر الأولاد وقارنوا أنفسهم بمن أعلى منهم مستوى وازداد الضغط عليك يا عزيزي المسكين وأصبحت المطالب كثيرة والاحتياجات مستمرة، وأصبحت كالثور الدائر في ساقية معصوب العينين تسعى للحصول على المال لإرضاء زوجتك وأولادك ونسيت العواطف السامية فقد خفت شدتها بل قد تكون بهتت أو ضاعت ودفنت، واشتدت عواطف أخرى من الجشع وجمع المال، وما أنت قد وصلت إلى مركز أعلى بعد مرور خمس وعشرون سنة من العمل وأصبحت المراكز محدودة يجب أن تتصارع للحصول على إحداها وإن حصلت عليها يجب أن تتصارع لتستمر على القمة وضغوط الأسرة متحدة مع ضغوط العمل ستصيبك بالطبع أمراض ضغط الدم والسكر والقرحة وأمراض أخرى قد تكون فيك وأنت لا تعلمها فليس عندك وقت يا ممكن لتذهب إلى الطبيب.

إن مصير الإنسان إلى الموت وكل هذه الأسباب تعجل بك إلى القبر فهذا هو النظام الكوني البشري شئت أو لم تشأ ستمر به وتعيش فيه حتى الموت.

* * *

القوة

يمكن تعريف القوة بأنها القدرة على السيطرة وتوجيه الآخرين والحصول على المركز الأدبي والمال والأصول (Assets) المادية الثمينة. إن امتلاك القوة فى حد ذاتها لا تؤهل إلى حل المشكلات والوصول إلى الأهداف، ولكن طريقة إدارة هذه القوة واستغلالها الاستغلال الأمثل هى الباب الذى يؤدى إلى النجاح . إذا امتلكت المال ولم تستخدمه فلن تحصل على شئ.

أن السيطرة على مجموعة من الأفراد بدون الحصول على أقصى جهد ذهنى وجسدى منهم لن يجدى فقد يفوق تكلفتهم على نفعهم، فليس المهم الحصول على القوة ولكن كيفية تسخير القوة للوصول إلى ما تصبو إليه هو الأهم.

إن إدارة القوى تطلب معرفة علوم متنوعة مثل الإدارة المالية وإدارة المنشآت الإقتصادية (صناعية - زراعية - تجارية...) وعلم النفس اللازم لإدارة الأفراد العاملين، وبحوث عمليات، وعلاقات عامة وخلافة من علوم الإدارة الحديثة.

من الطبيعى أن يلجأ الزعماء وذوى النفوذ فى الغرب أو حتى فى بعض البلاد الشرقية إلى مؤسسات متخصصة لتلميع أنفسهم، حتى يمكن التعامل مع الجماهير لاكتساب الشعبية اللازمة للحصول على المركز الأدبى أو السياسى الذى يعتبر جزءاً من القوة.

إن طريق الحصول على القوة واستخدامها ملئ بالصراع فالقوة الوحيدة المطلقة هى قوة الله وباقى القوى نسبية فإذا حصلنا على قوة معينة فإننا نتطلع إلى قوة أكبر مادام غيرنا يمتلكها ومن هنا يبدأ الصراع مع الآخرين مادام الإنسان غير قانع بما يملك.

من خلال المنافسة نسعى ونجاهد للحصول على القوة؛ فإذا كان تعريف المنافسة هو الحصول على شئ معين قبل أن يصل إليه الآخرون وهذا الشئ يجب أن يكون قيمًا بقيمة الجهود الذى يبذل للحصول عليه، ومادام الشئ قيم فإنه يعتبر قوة، فالمال قوة والسلطة قوة وكلاهما قيم، هذه الكلمة النابعة من القيمة. إن الإنسان لا يتنافس على لا شئ وأى شئ يحصل عليه الإنسان له قيمة تعتبر قوة مادام يمكن تحويله إلى مال والذى يمكن عن طريقة الحصول على السلطة أو أى هدف آخر، كذلك من السهل الحصول على المال عن طريق السلطة مثل ما يحدث فى جميع الدول الديكتاتورية.

إن من سلبيات الحصول على القوة هو البعد عن النواحي الإنسانية فى صراعنا مع المنافسين أو الذين يعترضوا طريقنا. أن تعبير الحصول على القوة أكثر واقعية من تعبير الوصول إلى القوة فكلمة الوصول ترتبط بنهاية، أما الطمع فى تحقيق القوة ليس له نهاية فكانت السيوف والرماح والخيل فى قديم الزمان من مظاهر القوة ثم أصبح المدفع والمال هما أساس القوة، أما الآن فإن التحكم فى المؤسسات المالية والإعلامية فى بعض البلاد والاستحواذ على الحكم فى البلاد الأخرى هى السبل اللازمة للحصول على القوة بجانب القوة العسكرية بالطبع. كانت وستظل قوة المال والقوة العسكرية والسلطة المطلقة مطمئنا نحن البشر إذا أظهرنا ذلك أو تظاهروا بعكسه، إنها غرائز موروثة وخبرات دميعة مكتبة منذ بدء الخليقة.

* * *

الكفاح

حين يمنح الإنسان فرصة لتطوير نفسه فإن كثيراً من القوى الخفية من الإمكانيات الذاتية تظهر وتنمو، هذه القوى الغير متوقعة والغير عادية تظهر أيضاً في حالات الصراع العنيف وعند الشعور بالخطر الذى قد يدهم الإنسان. لقد سمعنا وقرأنا عن قصص كثيرة لأناس اضطروا أن يعيشوا أياماً من غير طعام أو ماء أو مكثوا تحت أنقاض مبنى متهدم لعدة أيام، أو الصمود أمام مرض مستعصٍ أو مرض خبيث، فاستطاع البعض أن ينتصر بالإصرار والعزيمة والرغبة فى الحياة.

إن المجهود الجسدى أو العقلى غير العادى والذى يظهر فقط وقت الصراع مع عدو أو مع مرض ينبع من غريزة حب البقاء والكفاح. فى تخطيط حياتنا ومستقبلنا نأخذ فى الحسبان عوامل كثيرة نابعة من تجاربنا العادية ولكن لا نأخذ فى الاعتبار القوى الغير عادية، الأخرى التى لو مارسناها وتعودنا عليها وطورناها لأصبحت قوى عادية ثم نبدأ فى تطوير قوى غير عادية جديدة. إن الرياضى الذى يتدرب يكتب قوة جديدة لم يكن يملكها قبل التدريب وباستمرار التدريب والتطوير فى أساليب التدريب يكتب قوى أكبر، نعم يوجد حد للقوى المكتسبة وهو حد التشبع ولكن يجب أن نعلم أن لدينا مجال كبير وواسع لاكتساب قوى جديدة جسدية وعقلية ونفسية ومع الإدارة المبنية على العلوم الحديثة لإدارة هذه القوى الثلاث نستطيع أن نفعل الكثير فى الحرب أو السلم مع العدو أو مع الصديق، مع أنفسنا أو حتى مع الطبيعة.

يبدأ الإنسان فى أول مراحل الكفاح من أجل الحصول على احتياجاته الأولية، وتعتبر الاحتياجات عملية نسبية تبدأ بالحصول على حق الحياة باستنشاق الهواء وشرب الماء وتناول ما يسد الجوع من طعام ثم مروراً بالحصول على الاحتياجات الأخرى المتقدمة؛ مثل المسكن والجنس وإبداء رأى إلى المرور على المراحل الأخرى المتقدمة من الاحتياجات للوصول إلى الرفاهية.

تقوم الحاجة بدور الحافز المطلوب للكفاح. متى وجد الشعور بالحرمان مع الرغبة فى إشباع هذا الحرمان وجدت إرادة الكفاح لتحقيق الهدف. قد يولد الإنسان فقيراً أو غنياً ويرث ما تركه الأهل من غنى أو فقر، أى أن الإنسان مع ميراث شخصيته وذاته المنفردة يرث عامل مؤثر فى الكفاح وهو الشعور بالحرمان أو الشعور بالإشباع. بالتأكيد يعتبر الشعور بالحرمان عامل نسبى يختلف من شخص لآخر باختلاف الشعور بمقدار وقوة الرضا والقناعة لما يملكه الفرد. فمثلاً إذا كان الإنسان فقيراً ولكن لديه إحساساً بالرضا والقناعة بما يملك أو بما لا يملك فلن يتولد عنده الإحساس بالحرمان وبالتالي لن يتولد عنده حافز الكفاح. أما الإنسان الذى ولد غنياً قد يقنع بما لديه من مال وإمكانات وأيضاً قد يتولد عنده طموح زائد ورغبة جامحة لإشباع مزيد من الحاجات. بصفة عامة يتولد الحافز أكثر فى حالة الفقر والحرمان مما يؤدي إلى دورات بزوغ نجم بعض الأفراد فى عالم المال والشهرة وهبوط آخرين انتابهم الشعور بالشعب والاسترخاء فتناقصت ثرواتهم وإمكاناتهم تمهيداً لصعود مجموعة أخرى ليتحقق نظام جزئى من النظام الكلى للكون وهو نظام الدورات من صعود وهبوط، من بزوغ وأفول ومن أوج وحضيض.

لقد نشأت القوانين وقواعد لعبة التعامل (Game of Dealing) مع الآخرين لتنظيم عملية الصراع وكبح القوى المدمرة التى قد تهدد البشر ولكن يظل الصراع قائماً. إن توازن القوى مطلوب فى النظام الكونى كعامل لاستمرار الحياة فبدونه تستطيع فئة قليلة قيادة باقى البشر كالأغنام، لقد عانت المجتمعات المختلفة التى لا تمارس الديمقراطية من وجود قوة واحدة تحكم وتأمّر وتظلم حتى تصل عادة إلى القمع والسجن والقتل.

لقد وجد الطغيان منذ قديم الزمن ومبرراته كثيرة، إما لإنقاذ البشر من التخلف والعدوان وإما لإصلاح ما أفسده سلفه أو نشر رسالة إلهية، لا يهم السبب فى الطغيان ولكن فى النهاية يتسلط فرد أو فئة على مجموعة من البشر أو

حتى على شعب بأكمله. يسخر الطاغية كل موارد بلاده لإشباع رغباته وملذاته، لا يهمه مصلحة شعبه ولكن يضع طموحاته وتوسيع ملكه ومتعه الحسية فى المقام الأول. لا يحب الطاغية أن يكون موضع مسائلة أو مراقبة، لا يقبل مبدأ الشورى أو الديمقراطية، الحكم المطلق له أبدي، يطبق القانون على الغير ولكنه فوق القانون، فهو الحاكم الأوحى القادر والعارف بما يريد شعبه.

ماذا جنى طاغية الماضى أو الحاضر إلا أشلاء رجال وسبى نساء ويُتم أطفال، ينتهى مجد الطاغية فى كتب التاريخ بدون عظة أو اعتبار من مشروع طاغية جديد أو مشروع مستبد آخر، إن الإنسان لا يتعظ إلا بالتجربة العملية التى تقع عليه، وحتى التجربة القاسية التى نمر بها قد يحوها أو يحاول أن يحوها غرور الإنسان، ويظل ألم الإنسان هو الباقي لأن الطغيان والاستبداد مستمران باستمرار الحياة على نظام السيد والعبد المسود، الظالم والضعيف المظلوم. مهما تكلمنا عن العدل والحرية والمساواة وغيرها من الشعارات الرنانة ومهما مارسنا الديمقراطية أو الاشتراكية فسوف يستمر ظلم الإنسان لإنسان آخر وسوف يظهر طغيان واستبداد أجيال أخرى من الطغاة ومن المستبدين. إذا كان الرق الأسود قد انتهى فرضا فمازال الرق الأبيض قائماً ومازال امتهان إنسان لإنسان آخر قائماً، نظام ولد مع البداية وسيستمر حتى النهاية.

قد يظهر الكفاح من خلال أفراد المجتمعات الغير ديمقراطية ولكنه كفاح غال قد يكلف كثير من أفراد المجتمع حرياتهم وأرواحهم، وقد يستمر طويلا حتى ينتصر أى من الطرفين الحرية والعدالة أو القمع والطغيان.

لقد نشأت القوانين من خلال (صراع الحق أمام قوى الشر والظلم)، وتظهر أيضاً هنا النظرية النسبية فالحق قد يكون له أكثر من وجهة نظر فإذا سألنا جهتان تتحاربان عن وجهة نظرهما فى الحرب ستجد لكل منهما وجهة نظر مختلفة عن من هو صاحب الحق فى هذه الحرب. فى كثير من الأحيان نكافح من أجل الشئ ونكافح أيضا من أجل ضد الشئ، فالشعوب عامة تكافح من أجل الحصول على

الحرية والفرد أيضا يدافع من أجل حريته فى المنزل مع باقى أفراد أسرته وفى العمل ليكون له رأى خاص به بعيدا عن رأى زملائه أو حتى رؤسائه وفى النادى وفى الشارع وفى كل مكان يكافح الإنسان من أجل حريته ولكن الحرية لها ثمن غال ومكلف فحريتى قد تتعارض مع حريتك فوضعنا القوانين والقواعد للحد من الحرية فليس لى الحق أن أزعجك بالصوت العالى للأجهزة الصوتية وليس لى الحق أن أجاهر بأرائى التى قد تثير الجماهير وليس لى الحق أن أسير فى الطريق العام بملابس غير لائقة، وليس لى الحق فى الاستخدام بحرية لأشياء أمتلكها ولكن قد تحد من حرية الآخرين. إن حرية الاختيار رائعة ولكن أحيانا نهرب منها ونتمنى من داخلنا أن يفرض علينا الشئ، خصوصا فى العالم الشرقى نتغنى بالحرية ونعشق القدرية.. كلاهما مطلوب، مطلوب التنوع والتغير والتضاد فالإنسان يملك كلتا الغريزتين الفردية والجماعية، غريزة تأكيد الذات وإظهار السلطة وغريزة الانتماء للمجتمع والخضوع للآخرين، نظهر إحداهما فى بعض الأحيان وننشد الأخرى عندما نريد.

نحن البشر نحب أن نعيش مع الجماعة فى بعض الوقت، نعمل ونلهو معهم أحيانا، ونحبذ أن نعيش فى انفراد فى بعض الأحيان نتذكر الماضى ونحلم للمستقبل. يجب أن نوازن بين الحالتين نتعلم أن نحيا فى مجتمع بثقة فى النفس وبدون خوف أو قلق نتعلم منه وتتفاعل فيه فالمنفعة متبادلة بما فيها من فائدة للجميع، قد نتخاصم ونتصارع مع البعض ولكن لا نهرب منه فهذا المجتمع هو كياننا الكلى الذى ينبع منه كياننا الفردى. وفى نفس الوقت يجب أن نتعلم وأن نعيش مع أنفسنا بدون الشعور بالخجل أو الملل فلكل إنسان ما يسيئه ولا يوجد إنسان بدون خطايا، فإن كان من الواجب علينا أن نعيش بالضمير فأياضا يجب علينا ألا نقسو على أنفسنا بالتأنيب المستمر للضمير.

إن النظام الكلى يتطلب منا أن نوازن بين مساهمتنا للجماعة بدون التنازل عن كرامتنا وحريتنا الشخصية وبين المطالبة بحقوقنا الفردية بدون الإساءة إلى حقوق

الآخرين. إن قمة النضوج العاطفى والعقلى هو المحافظة على هذا التوازن للوصول إلى أعلى فائدة لكل من المجتمع والفرد.

إن لم تصل إلى الأعلى فاقنع بالأقل ولكن فى جميع الأحوال لابد أن تكون الفائدة عائدة على كل من الفرد والمجتمع فإن استغلال الفرد للمجتمع عن طريق الاهتمام بأنفسنا فقط والحصول على مزايا الانتساب للمجتمع مثل الأمن والتكافل الاجتماعى والعلاج المدعم بدون تقديم المقابل المادى والعينى يضعف المجتمع ككل ويجذبه إلى التخلف الاجتماعى والاقتصادى، وأيضاً فإن استغلال المجتمع للفرد عن طريق عدم المساواة أو عدم نشر العدالة الاجتماعية أو تقديم الحماية الداخلية والخارجية قد يؤدى إلى العصيان أو عدم بذل الجهد المفروض بذله لرقى المجتمع وتقدمه.

إن مجالات السلطة متعددة وعلى الفرد أن يكيف نفسه حسبما تقتضيه الظروف، إن خوف الفرد من مخالفة المجتمع قد يصيبه بالقلق الغير مرغوب فيه، فإن سمحت السلطة لمجال محسوب من حرية التعبير عن النفس نستطيع من خلال تفريغ الشحنة الانفعالية الفردية إزالة جزء كبير من القلق الذى قد يؤدى إلى العنف. تعتبر الصحافة والأحزاب الحرة الغير مقيدة والجمعيات الاجتماعية والسياسية والأدبية وخلافه من الوسائل الجيدة للتعبير عن الذات الفردية داخل المجتمع.

نحن نسير فى طريق الكفاح لأنه يؤدى إلى النجاح، ومن الزاد المطلوب التزود به فى هذا الطريق قوة الإرادة. هذه الصفة تتكون من كلمتين هما القوة، والإرادة التى هى نابعة من أنا أريد الوصول إلى هدف ولا بد أن يكون عندى قوة التحدى ضد اليأس والاستسلام بالإضافة إلى قوة العزيمة والمثابرة حتى لا نتأثر بتعب وطول الطريق. فالإنسان يحتاج إلى شئ ما لكى يعيش من أجله، هدف يكافح للوصول إليه، حافز يدفعه للعمل من أجل الوصول. يبدأ طريق الكفاح والنجاح بتوديع العادة التى قد تأصلت فينا وأصبحت نوع من الروتين فالطريق

ملئى بمتغيرات كثيرة لا يتماشى معها رتم الحياة الروتينية، وفى مقولة الكاتب الروسى دستوفسكى: إن الإنسان هو الكائن الحى الذى بمقداره أن يتعود على أى شئ - الحافز على إمكانية التغلب على إدمان العادة والروتين. يجب ألا تملكنا رغباتنا، ويجب أن نكبح نزوات النفس والشهوات. سنمر خلال الرحلة ببعض الفشل وبعض الأخطاء فالحياة ليست نجاح مستمر، والمطلوب منا فى هذه المرحلة الإيمان بالله والثقة فى النفس وفى إمكاننا تحويل الفشل إلى نجاح وتصحيح الأخطاء إلى صواب، لقد كتب الفيلسوف رويس (أننا إذا لم نخطئ، وإذا لم نحاول العلو على أخطائنا، فإنه هيهات لنا أن نصبح حكماء). يجب أن نتحلى ببعض الصفات الطيبة التى إن لم تكن فىنا فبالتعليم والتدريب يمكن أن تستكين هذه الصفات بداخلنا. تتركز الصفات المطلوبة لرحلة الكفاح والنجاح فى الرؤية الواضحة، الابتكار والتجديد، نشاط وحيوية وسرعة وحركة، شخصية جذابة مرحة لاجتذاب مزيد من الأصدقاء والمعارف، المرونة والمواءمة.

وأخيراً الحفاظ على الصحة لاستكمال المسيرة، فالطريق طويل وشاق ولكن جائزة الوصول أحلى وأجمل وتستحق منا السير فى طريق الكفاح.

التفاوض

إذا كان الصراع ينبع من الاختلاف والتضاد فإن التفاوض هو عملية تقدم فيها الاقتراحات للوصول إلى اتفاق يحقق فيه المصلحة المشتركة فى الأمر الذى يتصارع عليه الأطراف.

إن التفاوض كحل لإنهاء الصراع يطبق فى الصراع البشرى بين الإنسان وذاته أو الإنسان وإنسان آخر أو بين الدول المختلفة. وفى جميع الأحوال من المفروض أن يتم من خلال عملية المفاوضات الوصول إلى اتفاق يرضى بدرجة ما الطرفين أو الأطراف المعنية لإنهاء الصراع بصورة جذرية، أو تنظيم بعض جوانب السلوك فى المستقبل أو تجميد الصراع لفترة محددة (هدنة).

يتجه المتصارع إلى التفاوض عندما يجد أنه يخسر فى عملية الصراع أو حتى إذا انتهى الصراع بفوزة فقد يتجاوز ما سيخسره الفائدة العائدة من الفوز والوصول إلى الهدف الذى يسعى إليه. فالتفاوض هو فى الأساس عملية حساب أرباح وخسائر. وتقدير أو تقييم الأرباح والخسائر عملية نسبية، فبعض الناس يعطى وزن وقيمة كبيرة للأرباح أو الخسائر المادية وبعض آخر يضع الكرامة والشرف فوق كل اعتبار، وقد تكون لذة الفوز مجرد الفوز هى هدفاً فى حد ذاتها، المهم أن نعرف كيف نقيم وبأى ميزان نزن.

يعتبر التفاوض نوع آخر من أنواع الصراع، صراع للوصول إلى حل لمشكلة الاختلاف مع تحقيق أكبر مكسب ممكن أو أقل خسارة ممكنة، وبصفة عامة يمكن تجميع العوامل التى تؤثر فى عملية التفاوض فى ثلاثة محاور رئيسية:

القوى المتاحة لدى المفاوضين: وتختلف طبيعة القوى من قوى عسكرية أو قوى اقتصادية أو قوى ضغط من أطراف أخرى خارجية. المفاوض الذى يملك القوى يستطيع أن يفرض شروطه على المفاوض الأقل قوة. ولكن القوة أيضا

نسبية، فمن لا يملك القوى قد يكون أيضاً قويا فهو يملك قوة اليأس المدمر. ان القاتل الهارب المحكوم عليه بالإعدام قد يملك قوة تدميرية نتيجة يأسه. والإرهاب أيضاً قد يكون نابغاً من عقيدة حق من وجهة نظر الإرهابي وخطأ من وجهة نظر المجتمع، أو نابغ من يأس من يعلم أنه لن يخسر شيئاً إذا سجن أو قتل.

إتاحة المعلومات لدى المفاوضين: تلعب المعلومات دوراً مؤثراً على مائدة المفاوضات، فحصول مصر على خرائط وصور قديمة لمنطقة طابا كان له الأثر في سير المفاوضات. قد يكون للمفاوض الحق فيما يفاوض فيه ولكنه لا يملك الدليل فيضيع حقه. فلإثبات الحق، وضع الإنسان القوانين التي تتطلب إثباتات مادية ومعلومات موثقة وصور مرئية أو مسموعة مقرونة بالادعاء. تعتبر أيضاً إتاحة المعلومات عن المفاوضين أنفسهم من الأهمية إما للإقناع أو للابتزاز.

مهارة المفاوض: لقد خسرنا نحن العرب كثيراً، نحن نملك القوة الإقتصادية فى البترول والمال ونملك المعلومات فى الوثائق ولكن لانملك مهارة المفاوض الجيد. لقد أصبح التفاوض علم أساسى فى إدارة الأعمال والعلاقات الدولية والسياسية، علم يتطلب دراسة كثير من العلوم الاجتماعية والنفسية وبحوث العمليات ونظم المعلومات. ليس المهم أن تكون القوى التى يملكها المفاوض حقيقة أو خادعة، ولكن المهم هو كيف يساوم المفاوض بهذه القوى للوصول إلى ما يريد. فإذا كانت المهارة الفردية عامل مهم لفوز الفريق الرياضى فان الخطط التى يضعها المدرب ومدير الفريق، وكذلك دراسة احتمال تغيير الخطة الموضوعة مسبقاً حسب سير المباراة وتوقع الخطة التى يلعب بها الفريق المنافس لها الدور الأكبر فى الفوز. يجب أن يتعلم المفاوض ثقافة الأطراف الأخرى من المفاوضين حتى يستطيع فهم مايقولون فوسيلة الاتصال واجبة لإتمام عملية التفاوض. ليس المفروض على المفاوض فقط أن يسمع أو يقرأ أو يرى ولكن يجب عليه أن يفهم ويعى ويحلل مايسمعه ومايقراه ومايراه. فقد تعنى كلمة فى ثقافة ما معنى مختلف عن المعنى المفهوم فى ثقافة أخرى.

تعتبر المفاوضات عملية اتصال وإقناع وإدراك لعناصر المسائل المعلقة محل التفاوض، ولما كان الإدراك نسبى يختلف باختلاف الثقافات المختلفة المتكونة عبر آلاف السنين من معتقدات وأديان وأساطير وطبيعة إنسانية وطبيعة مكان وزمان فقد يختلف الإدراك لدى المتفاوضين على نفس العناصر، فإذا تعلمنا ثقافة المفاوض الخصم، أو بتعبير آخر أكثر تمدنا وسلماً المفاوض المقابل، نستطيع أن نقنعه بوجه نظرنا من خلال المنظور الخاص به.

أصبح فن التفاوض علم يدرس، له مذاهب ومدارس، له أصول واستراتيجيات. فى النقاط التالية يمكن تلخيص القواعد العامة لعلمية التفاوض والاستراتيجيات التى يمكن اتباعها للوصول إلى أقصى فائدة للأطراف المتفاوضة فكلما كانت الفائدة عامة على الجميع كلما كانت النتيجة التفاوضية ثابتة وراسخة وطويلة المدى وسريع الوصول إليها:

عدم الانفعال أثناء المفاوضات وخلق المناخ المناسب البعيد عن الغضب والخوف والعدوانية. قد يستلزم الأمر كسر استمرارية المفاوضات والذهاب إلى الشرفة - كما ينصح ويليام أورى خبير المفاوضات الأمريكى - من أجل راحة الأعصاب والسيطرة على الانفعال واستنشاق مزيد من الأوكسجين وبالتأكيد حساب الأرباح والخسائر فى حالتى نجاح وفشل المفاوضات.

- تحرى الموضوعية فى حل المشاكل وتجريد الصراع من الصبغة الشخصية.
- تنمية مهارة الاستماع للأطراف الأخرى لتفريغ مابداخلهم مما يؤدى إلى الراحة النفسية لهم بالإضافة إلى الحصول على أقصى قدر من المعلومات.
- توظيف الوقت لصالحنا، فيجب أن نتعلم متى نسرع فى عملية التفاوض ومتى نسوف ونظاھر بعدم الاهتمام.
- تحديد نقاط القوة ونقاط الضعف لأنفسنا وللأطراف الأخرى على قدر إتاحة المعلومات الخاصة بهم.

الشرفة - كما ينصح ويليام أورى خبير المفاوضات الأمريكي - من أجل راحة الأعصاب والسيطرة على الانفعال واستنشاق مزيد من الأوكسجين وبالتأكيد حساب الأرباح والخسائر فى حالتى نجاح وفشل المفاوضات.

- تحرى الموضوعية فى حل المشاكل وتجريد الصراع من الصبغة الشخصية.

- تنمية مهارة الاستماع للأطراف الأخرى لتفريغ مابداخلهم مما يؤدى إلى الراحة النفسية لهم بالإضافة إلى الحصول على أقصى قدر من المعلومات.

- توظيف الوقت لصالحنا، فيجب أن نتعلم متى نسرع فى عملية التفاوض ومتى نسوف وننتظر بعدم الاهتمام.

- تحديد نقاط القوة ونقاط الضعف لأنفسنا وللأطراف الأخرى على قدر إتاحة المعلومات الخاصة بهم.

- محاولة حفظ ماء الوجه للطرف الآخر وتقديم اقتراحاتنا كأنها نابعة منه ومتماشية مع قيمه ومفاهيمه.

- توسيع قاعدة الاختيارات وإتاحة أكثر من حل للمشكلة.

- إمكانية تغيير اتجاه المفاوضات لإحداث عنصر المفاجأة أو لإرباك المفاوض المقابل.

- التمويه عن التحركات وتسريب بعض الحقائق أو الإشاعات بطرق غير مباشرة لمعرفة رد فعل الأطراف الأخرى قبل الدخول فى عملية المفاوضات.

- تنويع وفد المفاوضات ليشمل الطيب والشرس، لكل منهما دور سيلعبه فى ملعب المفاوضات.

- تطبيق استراتيجية الخطوة بخطوة إذا كانت الأطراف المتفاوضة لاتعرف بعضها البعض أو استراتيجية الضربة القاضية المفاجأة فى حالة تهاون وعدم تركيز الطرف المقابل.

- قدرة على التعامل مع الاستفادة من المعلومات.

- القدرة على إدراك واستغلال القوة.

- التحلى بالصبر والثقة بالنفس.

- القدرة على الاحتمال الجسدى والعقلى لعملية المفاوضات.

يثار سؤال مهم أثناء المفاوضات وهو أى درجة من المخاطرة نتقبلها؟ بصورة عامة تختلف درجة تحمل المخاطرة تبعاً لشخصية المفاوض، ولكن قبول المخاطرة المحسوب طبقاً لنظرية الاحتمالات يمكن أن تخفف القلق المصاحب لاتخاذ القرار المشمول بدرجة من المخاطرة، كما يمكن القول بصفة عامة أيضاً أن السلوك التعاونى فى عملية المفاوضات يقل عند المفاوض الذى يتقبل درجة المخاطرة المرتفعة.

وأخيراً بدلاً أن نتصارع لماذا لانحاول أن نحل مشاكلنا ونصل إلى أهدافنا عن طريق المفاوضات، إنه نوع آخر من الصراع لايسفك فيه دماء ولايهدر فيه مال، صراع نمارسه من أجل الأفضل الذى نصبو إليه ومن أجل السعادة التى نحلم بها.

* * *

المصير

يطفو السؤال الأبدى عن الكون والذى يدور فى عقل معظم الجنس البشرى من حين لآخر وهو:

ماهى البداية وكيف ومتى ستكون النهاية ؟.

إن الإنسان البسيط الذى يعيش بفطرته وعقيدته لا يتبادر إلى ذهنه مثل هذه الأسئلة، وحتى إذا جالت فى خاطره فالعقيدة ستكون خير دفاع لما قد يتعرض إليه من يريد أن يغوص فى أعماق مثل هذه الفاسفات أو يغوص فى تحليل الأساطير الخرافية القديمة أو حتى الحديثة منها. وتجنب العقيدة والإيمان بالله ما يحدث من كثير منا نحن البشر من اكتئاب وتعاسة قد تؤدى إلى الجنون أو الانتحار.

دعنا نسلم بنظريات علماء الفلك عن الانفجار الكبير عند نشأة الكون، وأن هذا الكون الفسيح نشأ عن تمدد كتلة متجانسة صغيرة الحجم، كبيرة الكثافة، منضغطة بشكل يصعب تخيله، مرتفعة الحرارة، ونتج عن هذا التمدد خلق المجرات بما فيها من نجوم وكواكب، وأن هذا الانفجار حدث منذ خمس أو عشر أو حتى خمس عشرة ألف مليون سنة. فلا يهم هذه الفروق إذا تكلمنا فى مجال فلسفى وليس علمى. لقد تم خلق هذا الكون اللانهائى الذى له خاصية الانقباض والانتشار أى كون دائم الديناميكية والحركة، كون مجهول بدايته ونهايته.

أما بالنسبة لنهائتنا نحن البشر فقد يتوصل العلماء إلى السيناريو الأخير لاختفاء الشمس والكواكب التى تدور بفلكها عن طريق الصور الملتقطة لنجم بنفس حجم وظروف الشمس، أو عن طريق احتراق غاز الهيدروجين ونفاذه بعد عدة بلايين من السنين أو اصطدام نجم أو كوكب أو حتى نيزك بكوكبنا الحبيب،

ولكن يظل السؤال بلا جواب؛ متى وكيف كانت البداية ومتى وكيف ستكون النهاية للبشر وللكون؟!.

ليس مجالنا أن نلبس قبعة علماء الفلك ونبحث عن كيفية نشأة الكون وعمره، ومتى وكيف سينتهي الكون الذى نعيش فيه، ولكن قد تم النشر واستمرت حالة الكون بلايين السنين وبدأت الحياة تدب فيه ونعنى بالحياة هنا أى كائن حى يحوى على نظام يقوم بتحريك خلاياه وذراته ومكوناته بصفة عامة. ثم خلق الإنسان، هذا اللغز المحير لجميع علماء العلم والمعرفة، جاء بالغرائز الموروثة وجاء بأحاسيس وأفعال وردود أفعال ناتجة من تفاعلات كيميائية تختلف من فرد لآخر، ثم اكتسب الإنسان خبرات من البيئة المحيطة تخزن فى ذاكرة المخ ليستعيدها أو يستعيد بعض منها فى المستقبل.

هذا المخ البشرى الذى يحتوى على خلايا عصبية كثيرة تقوم بعمل الموصلات لتخزين المعلومات واستدعائها لإدارة هذا النظام الرائع المسمى بالإنسان عن طريق النبضات العصبية (Neural Impulses). قد يمكننا قياس وتقييم بعض المشاعر والأحاسيس والعواطف الخاصة بالحب والكراهية، بالعدوان والحنان، بالحماس واليأس، بالسعادة والبؤس.. إلى آخره من مشاعر وغرائز مختلفة ولكن من الصعب فهم الأداء المعقد للمخ بصورة متكاملة فالكمال لله وحده. لقد حاول الإنسان تطوير حاسباته الآلية عن طريق برامج الذكاء الاصطناعى لتقليد أداء سلوكيات البشر التى تتصف بالذكاء ولكن مازال البون واسعاً والقدر محدود.

لقد ولد الإنسان بغرائز ثم اكتسب خبرات من البيئة المحيطة بعد ميلاده وتم التفاعل الكيميائى وخزنت المعلومات والنتائج فى ذاكرة الإنسان وأورثنا أولادنا خبرات أخرى جديدة عن طريق التعليم ودارت عجلة التاريخ بدون أن نعرف متى وكيف كانت البداية ومتى وكيف ستكون النهاية.

وداخل رحلة الغرائز واكتساب المعلومات وجد الضمير الذى ينبع من غرائز وثقافات بيئية، كما وجدت القيم والمبادئ التى نعيش بها. ان الزواج بين الأخوات أو الأبناء والوالدين لم يكن إنما فى قديم الزمان وأوضح دليل على ذلك التاريخ الذى تركه لنا الفراعنة. حتى وقت قريب وحتى منتصف القرن العشرين كانت العلاقة الجنسية قبل الزواج فى المجتمع الغربى إنما أما فى وقتنا الحاضر فحتى العلاقات الشاذة فى بعض المجتمعات الغربية أصبحت شرعية. وحتى تاريخنا الحالى تمارس بعض سيدات القبائل الأولية فى استراليا وأفريقيا عادة تعدد الأزواج.

لقد وجدت العقيدة التى من خلالها يحدد الخير والشر، وتتغير العقيدة أيضاً باختلاف الثقافات فهى عملية نسبية بالزمان والمكان فبعض الأفعال الشريرة الآن لم تكن كذلك من آلاف السنين ومن يدري ما سيكون عليه تعريف الخير والشر فى المستقبل، إن الرشاوى التى تدفع لتسهيل أو إنهاء عمل ما تعتبره بعض الثقافات هدايا. لم يكن شراً فى الماضى التضحية بفتاة جميلة من أجل ألا تنور علينا الطبيعة أما الآن فحتى التضحية بالحيوان يعتبر ضد التحضر والإنسانية.

لم توجد ولن توجد المدينة الفاضلة يوتوبيا (Utopia) إلا فى مخيلة الإنسان فقط، فالصراع دائم وأبدى منذ بدء الخليقة. بدأ الصراع كما جاء بالكتب السماوية بين الخير والشر منذ أغرت الحية حواء وإغراء حواء لآدم لتناول الفاكهة المحرمة، والصراع بين آدم وذاته لعدم معصية أوامر الله من ناحية والانصياع لإغراء الحية من خلال حواء من ناحية أخرى، ثم حدثت أول جريمة كما ورد بالكتب الدينية عندما قتل قابيل أخاه هابيل بدافع الحسد والغيرة ثم بدأ مسلسل الصراع والجريمة، فهذا هو مصير الإنسان.

دعنا نتخيل مجتمع بدون صراع يحصل فيه كل إنسان على جميع حاجاته ورغباته، وهذا فرض مستحيل مادام ما يحتاجه فرد قد يتعارض مع ما يحتاجه فرد آخر، ولكن دعنا نحلم بهذا المجتمع، إذا أردت أن تحصل على طعامك أو شرابك

ساعدك باقى أفراد المجتمع بحماس وحب، إذا مرضت سارع من حولك إلى مداواتك وتمريضك، إذا أردت السفر والاستحمام ستجد من يعاونك ويتيح لك السكن ووسيلة الانتقال وإذا أردت الحب ستجد من يتجاوب معك، فى المدرسة والجامعة، فى الطريق أو فى المنزل، فى المكتب أو فى المصنع الجميع متحابون متعاونون، لا حاجة فى هذا المجتمع لجمع المال فكل شئ متاح لك قدر المستطاع، فهل حينئذ سيكون الإنسان سعيداً، اعتقد لا، لأنه سيكون هذا المجتمع الخيالى مجتمعاً مملأً وكثيلاً من خلال التكوين البشرى الذى نحن عليه.

دعنا نزيد الحلم صعوبة ونتخيل أيضاً أننا استطعنا نزع الشعور بالألم من الإنسان طبعاً بعد القضاء على الصراع وأسبابه، أى لا ألم فى الفراق أو الموت، لا ألم عند الجروح أو الحوادث، لا ألم من فقد أى شئ مادي أو معنوى وذلك أما عن طريق عدم فقدان أو عدم الإحساس بالفقد.

إذا وصلنا إلى هذه الحالة فهل سنصبح سعداء، بالمنطق سنصل إلى حالة الجمود وليس حالة السعادة. لقد بنى النظام البشرى أو النظام الحى بصفة عامة على الألم الناشئ من الصراع، الناشئ من التضاد، بالإضافة إلى الألم الناشئ من الحوادث أو الألم الناشئ من المرض الذى يعتبر أيضاً نوع من الصراع بين أجهزة الجسم ومناعته من جهة والميكروبات والفيروسات من جهة أخرى.

لقد خلق الله هذا النظام الديناميكى الذى نعيش فيه بالصراع والألم، ولكن هل نستطيع أن نحصل على السعادة بالرغم من هذا الصراع؟ الإجابة بالطبع نعم فهذا جزء من النظام: صراع وسعادة. ولكن السؤال الصعب هو أى قدر من السعادة نستطيع أن نحصل عليها؟ وإلى أى مدى نستطيع أن نطيل فيها فترات السعادة؟، هذا ما سنحاول الاجتهاد فيه فى الصفحات التالية.

* * *